

إنها الفت تاليفاً بديعاً، بأن خلط بعضها ببعض وركبت تركيباً أنيقاً، ثم بعد ذلك التاليف، تارة تجعل تاجاً على الرأس، ومرة ملوفاً في العنق، ومرة بمنزلة القرط في الأذن، فالألفاظ الرائعة بمنزلة الدرر واللؤلؤ، وهو علم المعاني، وتاليفها وضم بعضها إلى بعض، وهو علم البيان، ثم وضعها في المواضع اللائقة بها عند تاليفها وتركيبها، هو علم البديع، فوضع التاج على الرأس بعد إحكام تاليفه هو وضع له في موضعه، ولو وضع في اليد أو الرجل؛ لم يكن موضعاً له، وهكذا الكلام بعد إحكام تاليفه يقصد به مواضعه اللائقة به، وما ذكرناه من المثال هو أقرب ما يكون في هذه العلوم الثلاثة وتمييز مواقعها»<sup>(٨)</sup>. إذن فاختيار الألفاظ الرائعة وحسن تاليفها، تحقق من خلال المعاني والبيان، وقبل الوصول إلى البديع.

أما الأمر الثالث الذي حدده القزويني في تعريفه للبديع، وهو تقسيمه إلى معنوي ولفظي، فهو - مبدئياً ومن حيث الغاية التقعيدية النظرية - أمر مقبول، ولكن على أساسين:

**الأساس الأول:** وهو التغليب أو الترجيح، بمعنى أن هذا الفن أو ذلك يعد من البديع اللفظي، أو المعنوي؛ لكون البلاغة فيه ترجع - أول ما ترجع وليس آخر ما ترجع - إلى الجانب اللفظي أو المعنوي. ولعل يحيى بن حمزة وعى هذا الأساس، حين قال - بعد تقسيمه للبديع إلى لفظي ومعنوي - : «أعلم أننا قد اخترنا إيراد أنواع البديع على هذين النمطين، وهما في الحقيقة متقاربان؛ لأنه لا بد من اعتبار اللفظ والمعنى فيهما جميعاً، خلا أن الأول الغرض منه هو الاعتماد على فصاحة الألفاظ، وعلى هذا يكون المعنى تابعاً، والنمط الثاني المقصود منه هو الاعتماد على بلاغة المعاني وتكون الألفاظ تابعة، وعلى هذا يعقل التفاير بين النمطين»<sup>(٩)</sup> ولعل - أيضاً - في شرح ابن يعقوب المغربي ما يفيد ذلك، حيث قال: (لفظي) أي منسوب إلى اللفظ؛ لأنه تحسین للفظ بالذات، وإن تبع ذلك تحسین المعنى؛ لأنه كلما عبر عن معنى بلفظ حسن استحسن معناه تبعاً، وإن شئت قلت في التحسين المعنوي أيضاً أن كونه بالذات معناه أن ذلك هو المقصود ويتبعه تحسین اللفظ دائماً؛ لأنه كلما أفيد باللفظ معنى حسن، تبعه حسن اللفظ الدال عليه»<sup>(١٠)</sup>

**الأساس الثاني:** أن هذا الفصل يكون على مستوى التأصيل النظري، بغية التوضيح والتبيين. أما حين التعامل مع الكلام الأدبي، فلا يلزم التقيد بهذا الفصل؛ لأنه - وكما قال يحيى بن حمزة -: «لا بد من اعتبار اللفظ والمعنى فيهما جميعاً».